﴿*وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

[التّوبة: 75 - 77]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

عِـظَـمُ بُـخْـلِ المُـنـافِـقـيـنَ وَجَـراءَتِـهِـمْ عَلى أَقْـبَـحِ الـكَـذِبِ وَأَشْنَعِهِ

لَمَّا أقامَ اللهُ ﷻ الدَّليلَ الخاصَّ على إجرام المنافقينَ، وخَتَم ذلكَ بأنَّه أغناهُمْ من فضلِه؛ أتبعَ ذلكَ بإقامة الدَّليلِ علَى هذا الإغْناءِ، وأنَّهم لم يَقوموا فيهِ بحقِّ اللهِ سبحانَهُ، وأنَّهم قابلوا إنْعامَ اللهِ تَعالى عليهم بقَبْضِ أَيديهم عَنِ الإنفاق واجترائهم عَلى أَقْبَحِ الكَذِبِ وأشنعه، فقال ﷻ: ﴿*وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾[1]، والحال أنَّ "من المنافقين من أعطى اللهَ عهدَهُ وميثاقه، لئن أغناه اللهُ من فضله، وأعطاه مالًا وثروةً، ليشكرَنَّ اللهَ على نعمتهِ بالصَّدقَةِ منها، وليعملنَّ عمل أهل الصَّلاح، من صلةِ الرَّحم والإنفاق في سبيل اللهِ"[2]، لكنَّه أخلفَ الوعد، ولم يلتزم بالعهد، وأظهر نفاقَه وكَذِبَهُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰهَدَ﴾: أصلُ العَهْدِ: حِفْظُ الشَّيءِ ومراعاتُه حالًا بعدَ حالٍ[3]، وهذه المُراعاةُ حالًا بَعْدَ حالٍ هيَ الَّتي عبَّر عَنْها الخليلُ بقولِه: إحداثُ العَهْدِ بِالشَّيءِ[4]، ومِنْ هذا البابِ: العهدُ الذي هو الوصيَّةُ[5]؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 13/11.
(3) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات، ص: 591، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (عهد).
(4) الخليل بن أحمد، العين: (عهد).
(5) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (عهد).

لكونها مِمّا تُحْفَظُ، وتُراعى حتَّى تَنْفُذَ، وللعهد معانٍ كثيرةٌ جدًّا، منها: الأمانُ، واليَمينُ، والذِّمَّة، ورعاية الحقِّ، والمَنْزِل[1]، وكلُّها راجعةٌ إلى الأصل المذكور، والمُعاهَدَةُ في قولِ الله ﷻ: ﴿*وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ معاقَدَةٌ بعزيمةٍ تتحقَّق بذِكْرِ الله تعالى[2]، والعَهْد العقدُ، يُقال: عاهَدَ، أي: عقد عقدًا أوجب على نَفسه القيامَ به، وهو عكسُ الغدر[3]، العهد هُنا الميثاقُ، ومنه قوله تعالى: "﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: 34]، وقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْۚ﴾ [التّوبة: 4]، والعهد: الحفظ، ورعايةُ الحقِّ، وهو مصدر، وفي الحديث: «أنَّ عجوزًا دخلت على النَّبيِّ ﷺ، فسألَ بها وأحفى، وقال: إنَّها كانت تأتينا أيامَ خديجة، وإنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان»[4].

2) ﴿بَخِلُواْ﴾: الباءُ والخاءُ واللَّام، تَدورُ تَصْريفاتُها عَلى معنى إمساكِ ما يُتَطَلَّبُ، ويُمْكِنُ إخْراجُهُ[5]، وحقيقَةُ البخل - كما قال الرَّاغِبُ -: إمْساكُ المُقْتَنَياتِ عمَّا لا يَحِقُّ حَبْسُها عنه[6]، ويُعرَّفُ أيضًا بأنَّهُ: مَنعُ الواجِب في دينٍ أَو مُروءةٍ أو عادةٍ[7]، وقد (بَخِلَ) بكذا من باب فَهِمَ وطَرِبَ، وبُخلًا أيضًا بالضَّم، فهو باخلٌ وبخيل، وبخَّلَهُ نسبَهُ إلى البُخْلِ[8]، ويقال: «الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ»[9]، والبُخْلُ في قولِ الله ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾، هوَ إمساكُهُم فضلَ اللهِ تعالى الَّذي آتاهُم، فَلَمْ يتصدَّقوا مِنْهُ، ولَم يَصِلوا بهِ قرابةً، ولم يُنْفِقوا منه في حَقٍّ مِن حُقوق اللهِ سُبْحانَهُ[10].

3) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾: العَيْنُ والقافُ والباءُ، تدُلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى معنيَين كُلِّيَّيْن؛ أحدُهما:

(1) القاسم بن سلّام، غريب الحديث: (عهد)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عهد)، ونشوان الحِمْيَريّ، شمس العلوم، (عهد).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 10/558.
(3) الميورقيّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين البخاريّ ومسلم، ص: 426.
(4) أخرجه الحاكم في المستدرك: 1/15 - 16، والشّهاب القضاعيّ في مسنده، الحديث رقم: (971)، والحديث مذكور في النّهاية: 3/325، وذكره كذلك: نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (عهد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بخل).
(6) الرّاغب، المفردات: (بخل).
(7) أبو موسى المديني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: (بخل).
(8) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (بخل).
(9) والحديث ورد بهذه الصّيغة، وبصيغة فيها زيادة، وهي قوله: «الوَلَد مَبْخَلَة مَجْبَنَة مَحْزَنَة مجهلَة»، وقد رواه بصيغته المختصرة ابن ماجه عن عبد الله بن سلام، قال: جاء الحسن والحسين يستبقان إلى النّبيّ ﷺ فضمّهما إليه، وذكره، وللعسكريّ والحاكم عن الأسود بن خلف أنّ النّبي ﷺ أخذ حسنًا فقبّله، ثمّ أقبل عليهم، فقال: «إنّ الولد مجبنة مبخلة»، ينظر: الثّعالبيُّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 5/440.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 14/369.

تأخيرُ شَيْءٍ ومجيئُه بَعْدَ غيره، والآخرُ: ارتِفاعٌ وشِدَّةٌ وصُعوبةٌ[1]، ومِنَ الأوَّل قَوْلُهم: أَعْقَبَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ؛ إذا صارَ مكانَهُ؛ لأنَّه يَكونُ متأخِّرًا عَنْهُ[2]، ومِنْهُ سمِّيتِ العقوبةُ بذلكَ؛ لأنَّها تَكون آخرًا بعد الذَّنْبِ[3]، وقد قال الشَّاعر:

كَمْ مِنْ عَزيزٍ أَعْقَبَ الذُّلُّ عِزَّهُ *** فَأَصْبَحَ مَرْحومًا وَقَدْ كانَ يُحْسَدُ[4]

"وكلُّ شيءٍ يعقُبُ شيئًا، فهو عقيبُه، كقولك: (خَلَف يخلُفُ) بمنزلة اللَّيل والنَّهار، إذا قضى أحدهما عقب الآخر، فهما عقيبان، كلُّ واحدٍ منهما عقيبُ صاحبه، ويعتقبان، ويتعاقبان: إذا جاء أحدُهما؛ ذهب الآخر، وقولُ اللّه ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾، أيْ: عوَّضهم، وأبدلَهُمْ عقوبةً لَهُمْ"[5].

4) ﴿نِفَاقًا﴾: النُّون والفاءُ والقافُ، تَدُلُّ تَصْريفاتها على أَصْلَيْنِ؛ أحدُهما: انقطاعُ الشَّيء وذهابُه، والآخَرُ: إخفاءُ شَيْءٍ وإغماضُهُ[6]، ومِنَ الثَّاني: النِّفاقُ؛ وهوَ إظهارُ الإسْلامِ مَعَ إبْطانِ الكُفْرِ وإخفائِه[7]، وهو مأخوذٌ مِن نافِقاء اليَرْبوعِ؛ وهو جُحْرٌ يَخْرُجُ مِنْهُ إذا سُدَّ الجُحْرُ الَّذي دخَل مِنْهُ بِحَجَرٍ، فيُقال: نَفَقَ ونافقَ، فشُبِّهَ فعلُ المنافق بفعل اليَرْبوع؛ لأنَّه يدخُل مِن باب، ويَخْرُج مِن آخرَ، وكذلكَ المُنافقُ يَدْخُل في الإسلامِ باللَّفْظِ، ويَخْرُج مِنْهُ بالاعْتِقادِ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكر السِّياقُ أنَّ مِن هَؤلاءِ المُنافقين جماعَةً مِنَ الفُقَراء، يَقولُ أحدهم: لَئِنْ أَعْطانا اللّهُ تَعالى مِن فَضْلِه، ورَزَقَنا مالًا، لَنُخْرِجَنَّ الصَّدقةَ مِن ذَلِكَ المالِ الَّذي رَزَقَنا إيَّاه، ولَنَعْمَلَنَّ فيه بعَمَل أهلِ الصَّلاح بأَمْوالِهِم، مِن صِلَةِ الرَّحم بِهِ، وإنْفاقِه في سَبيلِ اللّهِ تَعالى، فلمَّا رزقهم اللّه، وآتاهُم مِن فَضْلِهِ؛ لَم يتصدَّقوا مِنْهُ، ولم يصلوا مِنْهُ قرابةً،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عقب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(4) الخليل بن أحمد، كتاب العين، وابن سيده المرسيّ، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(5) ينظر: كتاب العين: (عقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفق).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 29.

ولم يُنْفِقوه في أوجُهِ الخير، وأدبروا عن عَهْدِهم، فكانَ جزاءُ بُخْلِهِم بحقِّ اللّهِ تَعالى الَّذي فرضه عليهم، فيما آتاهُم مِن فَضْلِه، وإِخْلافِهم الوعْدَ الَّذي وعدوا اللّه تعالى، ونَقْضِهِم عَهْدَه في قلوبهم: أَن زادَهُم نِفاقًا عَلى نفاقهم، لا يَقْدِرون على الانفكاك منه إلى أن يَلْقَوُا اللّهَ عَلى تلك الحال، وذَلك بِسَبَبِ إِخْلافِهِمُ العَهْدَ الَّذي عاهَدوا اللّهَ تَعالى عليه؛ مِنَ التَّصدُّق والإنْفاقِ في سَبيلِهِ، وبسبب نفاقهم وكَذِبهم في قيلِهِم[1].

المُنافِقونَ أَكْذَبُ النَّاسِ في القَوْلِ، وَأَشَدُّهُمْ خُلْفًا وغدرًا

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ الواوِ: ﴿وَمِنْهُم﴾:

الواوُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدَهُ استئنافٌ[2] يُرادُ به بيانُ صِنْفٍ مِن أصنافِ المنافقينَ، بعد الأمر بجهاد عامَّتِهم والغِلْظَةِ عليهم.

بَيانُ حالِ صِنْفٍ مِنْ أَصْنافِ أَهْلِ النِّفاقِ

دِلالَةُ (مِنْ) في: ﴿وَمِنْهُم﴾:

حرفُ الجَرِّ (مِنْ) في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ، والضَّميرُ (هُمْ) راجعٌ إلى المنافقينَ، وفي استعمال حَرْف الجرِّ (مِنْ) إيماءٌ إلى أدبٍ قرآنيٍّ راقٍ، وهوَ الإنصافُ ولَو مَعَ المخالفينَ المعادينَ لنا، فاللّهُ سُبحانه يُعلِّمنا الصِّدقَ في الأحْكام والإنصافَ فيها؛ لئلَّا نُسْرِفَ في القولِ، فنُعَمِّم القولَ في المَقاماتِ الخاصَّةِ[3].

أمرُ اللهِ تَعالى بالصِّدْقِ في الأَحْكامِ والإنْصافِ فيها

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ الأَعْظَم ﴿ٱللَّهَ﴾:

عُلِّقَ فعلُ المعاهدَةِ على الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿*وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾؛ تعظيمًا لهذه المعاهدَةِ؛ إذ هي مُعاهدَةٌ

شَناعَةُ نَقْضِ العَهْدِ المُبْرَمِ مَعَ اللهِ ﷻ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/369 - 370، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 199.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/138.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3382.

الجامعِ لصِفات الجَلال والجمال والكمال، والعظيم الَّذي لا أعظمَ منه[1]، ويترتَّب عَلى هذا تشنيعُ نقضهم لهذا العَهْدِ، وتَبْشيعُ خُلْفِهِمْ لهذا الوعد.

دِلالَةُ اللَّامِ في ﴿لَئِنْ﴾:

اضطرابُ قُلوبِ المُنافِقينَ في اليقين بعظمةِ ربِّ العالمين

اللَّامُ في ﴿لَئِنْ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ موطِّئةٌ لقسَمٍ مقدَّرٍ، وجوابُ القسم قولُهُ: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾[2]، ففيه تأكيدٌ مِنْهُم للعهد الَّذي عاهدوا اللَّهَ تعالى عليه، حيثُ بالغوا في العَزْمِ عَلى الوفاءِ بهِ بالقسَمِ، ومعَ هَذا التَّأكيدِ الشَّديدِ إلَّا أنَّهم نَقَضوهُ، وخالَفوهُ؛ لعدَمِ استقرارِ عظَمَةِ اللهِ تعالَى في قُلوبِهِمْ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالإيتاءِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾:

طَمَعُ المُنافِقينَ في عَظيمِ العَطاءِ، وامتدادِ أملهم فيه بالرَّجاء

جاء التَّعبيرُ بالإيتاءِ دونَ الإعطاء في قول الله سُبْحانه: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ لنكتتين:

إحْداهُما: تعظيمُ هذا العَطاء؛ لأنَّ الإيتاءَ في الاستعمال القرآنيِّ لا يكون إلَّا للشَّيء الكثيرِ والعَظيم القدْرِ، كالقُرآن، والتَّوراة، والمُلْك، والرَّحمَةِ، بخلاف الإعطاء[3]، فكأنَّهم طَمِعوا في عطاءٍ عظيمٍ يَصْلُحُ معَهُ التَّعبيرُ بالإيتاءِ لِعَظَمَتِهِ، والأخرى: إيهامُ استحقاقهم فضْلَ اللهِ سبحانَهُ، وأنَّهم له أهلٌ، ووجهُ ذَلِكَ: أنَّ الإيتاءَ يَرِدُ لِما يكون فيه العطاءُ عَن طيب نَفْسٍ.

دِلالَةُ الجارِّ والمجرورِ: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾:

لا يَجِبُ عَلى اللهِ العليِّ، إلَّا ما أَوْجَبَهُ عَلى نَفْسِهِ في قَدَرِهِ الأزليِّ

قولُ الله ﷻ: ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾، فيه قوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، وهو اعترافٌ من هَؤلاءِ المُنافقين، بأنَّ عطاءَ اللهِ سُبحانه لعبادِهِ، لم يكن عَلى سبيل الإلزام عليهِ والإيجابِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/552.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/358.
(3) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

والمعلومُ عقيدةً وواقعًا أنَّه لا يَجِبُ عَلى اللهِ ﷻ، إلَّا ما أوجبه سُبحانَهُ عَلى نفسه، وأنَّ ذلك العطاء منه تكرُّمٌ وتفضُّلٌ، وهو متناسبٌ مع لفظ ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، وفي ذلك إيماءٌ مِنْهُمْ إلَى تنوُّعِ عطاءِ اللهِ ﷻ، وأنَّهم من المفروض أن يَرْضَوا به عن طواعية وسماحة، سواءٌ أكانَ عَن طَريق تِجارةٍ، أو غنيمةٍ، أو زراعَةٍ، أو نَحْوِ ذلك، أو كان تفضُّلًا منه دون سببٍ ظاهر، فعطاؤه كثيرٌ، وإنعامه أثيرٌ، وفضله لا نهاية له، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النَّحل: 18].

سِرُّ التَّأْكيدِ في: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾:

الكاذِبُ يُبالِغُ في التَّأْكيدِ لِظَنِّهِ أَنَّ النَّاسَ تُكَذِّبُهُ

في قولِ اللهِ ﷻ حكايةً عَن مقالةِ طائفةٍ مِنَ المُنافقين: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾ تأكيدٌ باللَّام الموطِّئة للقَسَم، وبالقَسَم المحذوف، وبنونِ التَّوكيد الثَّقيلة أيضًا، وإنَّما كَثُرَ التَّأكيدُ في مقالةِ المنافقينَ؛ لأنَّهم كذَبَةٌ مارقون، وقَدْ جَرَتِ العادَةُ أنَّ الكاذب يظُنُّ أنَّ النَّاس يُكذِّبونَهُ[1]، فيُبالِغُ في دَفْعِ هذا ابتداءً لتَروجَ مقالَتُهُ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ(نَصَّدَّقُ) دونَ (نَتَصَدَّقُ):

مَنِ ادَّعى الإحسانَ؛ كذَّبتْه شواهدُ الامتحان

عُبِّر بالفِعْل (نصَّدَّقُ) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾، دونَ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (لَئِنْ آتانا مِن فَضْلِه لنتصَدَّقَنَّ)؛ لنكتتين: إحداهما: كَوْنُ الأوَّلِ أَخَفَّ بالإدغام[2]، بخلافِ الآخَرِ ففيهِ ضربٌ مِنَ الثِّقَل، عِنْدَ اقترانِهِ بِنونِ التَّوكيد الثَّقيلَة، والأخرى: أنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ فيهِ إيماءٌ إلى أنَّه تصدُّقٌ خالصٌ خالٍ مِنَ الرِّياء، وأَشْعَرَ بذلكَ الإدغامُ؛ إذ أصل (نصَّدَّقُ): (نَتَصَدَّقُ)، فأُخْفِيَ حرفُ التَّاءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/272.

بالإدغام[1]، فأشارَ هذا الإخفاءُ إلى إخفاء العمل عن المَخْلوقينَ، وهذه حقيقةُ الإخلاصِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَينونة: ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾:

دَعْوَى المُنافِقينَ أَنَّهُمْ مَجْبولونَ عَلى الخَيْرِ، باطلٌ وسفاهةٌ

جاء التَّعبيرُ بفعل الكون (نَكونَنَّ) في قول الله ﷻ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، للإيهام بأنَّهم مَجْبولونَ على الخَيْرِ مطبوعونَ عليهِ[2]، والكينونة الَّتي يحملها لفظ (نَكونَنَّ)، تفيدُ تزييفَ الواقع الَّذي يعصف بوجدان المنافقين، ويوهم من يسمع كلامَهم أنَّهم جادُّون في التَّوق إلى الصَّلاح، والواقع غير ذلك، والدَّليل على زيف تلك الأقوالِ ما وقع منهم من سوء الأفعالِ.

نُكْتَةُ العُدولِ عن (وَلَنَكونَنَّ صالِحينَ):

اعْتِرافُ المُنافِقينَ الضِّمنيُّ، بِأَنَّهم غَيْرُ صالِحينَ

قال اللهُ ﷻ حكايةً لِمقالةِ المنافقينَ: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، دون أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (وَلَنَكونَنَّ صالِحينَ)؛ لبيانِ أنَّهم يَعْلَمونَ من أنفسِهم كونهم ليسوا صالِحينَ، وإن أرادوا الإيهامَ بأنَّهم مجبولونَ على الخَيْرِ باستعمال فعل الكون، ولكنَّ حقيقةَ أمْرِهم أنَّهم يَشْعرونَ بأنَّهم ليسوا كذلك، وأنَّهم يَرْغَبون في العدولِ عَنِ الحالِ غير الصَّالحة إلى حالٍ أخرَى غير حالهم، فَيَنْدَرِجون في سِلْكِ الصَّالحينَ بَعْدَ أن لَم يَكونوا مِنْهُمْ[3].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

ادِّعاءُ المُنافِقينَ بُلوغَهُمْ أَعْلى المَراتِبِ الفاضِلَةِ زيفٌ وتضليلٌ

في قولِهِ: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، الألف واللَّامُ في ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، من قول الله ﷻ: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يُرادُ بِها الكَمالُ، والمعنى: لنَكونَنَّ في زُمْرَةِ الصَّالحين الكامِلينَ في الصَّلاحِ الرَّاسِخينَ فيهِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3385.

دِلالَةُ (الفاءِ) في: ﴿فَلَمَّآ﴾:

الفاءُ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، دالَّةٌ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، كما هو أصلُ دلالَتِها، فأفاد ذلكَ سُرعةَ استجابة اللهِ سُبْحانه لهم؛ ليَظْهَرَ للنَّاس كَذِبُهُم في قيلِهم وخُلْفُهُم في وَعْدِهم ونقضُهم لِعَهْدِهم، وفيهِ ترتيبُ الإخلاف بالعهد؛ لأنَّ الحَلِفَ لا يَزيدُ أهلَ النِّفاقِ إلَّا خداعًا، ولا يُصيِّرُهُ مؤدِّيًا لِلْحَقِّ، فَحالُه على ضدِّ ما يوجبُهُ الإيمانُ؛ إذ الإيمانُ يوجِبُ الوفاءَ، والنِّفاقُ يوجبُ الإخلافَ[1].

الإيمانُ يوجِبُ الوَفاءَ، والنِّفاقُ يوجِبُ الإخْلافَ

نُكْتَةُ تَكْرارِ ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿*وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ كُرِّر الجارُّ والمجرور ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، تقريرًا لما قالَهُ المعاهِدُ، وزيادَةً في تأكيدِ الإعلامِ، بأنَّ إعْطاءَ اللهِ سُبحانَهُ أحدًا من عباده، هو محضُ تفضُّلٍ منه ﷻ وتكرُّم[2]؛ إذْ لا يجبُ على اللهِ سُبحانَهُ شيءٌ، إلَّا ما أوجبه هو تعالى عَلى نفسه تفضُّلًا منه وتكرُّمًا.

عَطاءُ اللهِ سُبْحانَهُ لِعِبادِهِ، مَحْضُ تَفَضُّلٍ وَتَكَرُّمٍ

دِلالَةُ الفِعْلِ المُضَعَّفِ ﴿وَتَوَلَّواْ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ﴾. عُبِّر بالفعل ﴿وَتَوَلَّواْ﴾، دلالة على أنَّهم كلَّفوا أنفسَهُمُ الإعْراضَ عَن طاعَةِ مَن تفضَّلَ عليهم بالعَطاءِ، مع معرفتهم قُبْحَ نقْض العَهْدِ وخُلْفِ الوَعْدِ[3]، "أي: أدبروا عن طاعةِ اللهِ، وعن فعلِ الخير، وهم قومٌ دأبُهم التَّولِّي عن سماع الحقِّ، وشأنهم الانقيادُ للهوى والشَّيطان"[4].

نفوسُ المُنافِقينَ ليست مَجْبولَةً عَلى الانْقيادِ إلى مَنْ أَحْسَنَ إلَيْها

نُكْتَةُ ذِكْرِ الإعْراضِ بَعْدَ التَّوَلِّي: ﴿وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾:

نُصَّ عَلى الإعْراضِ بَعْدَ ذِكْرِ التَّولِّي في قول اللهِ ﷻ: ﴿وَتَوَلَّواْ

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3384.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/553.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/553.
(4) طنطاويّ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 6/358.

جمعُ المُنافِقينَ بين الانحرافِ بالقلب، والإعْراضِ بالجوارح

﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾؛ لأنَّ التَّولِّيَ لمَّا كان قد يُطْلَقُ عَلى ما يَكونُ بالجسد فحسبُ؛ أُتْبِعَ بذِكْرِ الإعراضِ؛ لبيانِ أنَّ ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ بأَبْدانِهم، وأَعْرَضوا بقُلوبِهِم[1]، فجمعوا في انحرافهم بينَ أعْمالِ القُلوب وأعمالِ الجَوارِحِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾:

الإعْراضُ وَصْفٌ لازِمٌ لِلمُنافِقينَ؛ فَهُمْ لا ينفكُّون عنه

جاءَ التَّعْبيرُ بالجملة الاسميَّة، في قول الله ﷻ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ الإعراضَ صفةٌ لازمَةٌ لَهُمْ، وليسَ وصفًا مُتجدِّدًا فيهم، فهوَ طَبْعٌ لَهُمْ وسجيَّةٌ، وقَد جرَتْ عادتُهُم عَلى الإعراض عن الطّاعات، فلا يُستَنْكَرُ منهم هذا[2].

دِلالَةُ (الواوِ): ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾:

ديدنُ المُنافِقينَ، تَوَلِّيهِم بِإجْرامِهِمْ، وإعْراضُهُم بِقُلوبِهِمْ

الواوُ في قَوْلِ الله ﷻ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملَةُ بَعْدَها مستأنفَةٌ، ويجوزُ أن تَكونَ الواوُ حاليَّةً، والمعنى: تولَّوا بإجْرامِهِم، والحالُ أنَّهم مُعْرِضونَ بقلوبِهِم[3]، ويجوزُ أن تَكونَ هذهِ الجُمْلَةُ معترِضةً؛ لبيانِ عُموم حالهم وشأنهم، أي: تولَّوا وهُمْ قَوْمٌ عادَتُهُم الإعْراضُ[4].

بَراعَةُ التَّصْويرِ:

المُنافِقُ دائِمُ الِانْفِلاتِ، فَلا ارْتِباطَ لَهُ بِوَعْدٍ وَلا عَهْدٍ

في قول الله ﷻ: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾، تصويرٌ بديعٌ لنفسِ البخيلِ الَّذي يُؤتيه اللّهُ سُبحانَهُ مِن فضلِه، بعد أن أَخَذَ العَهْدَ بأنَّه يتصدَّقُ ويفعَلُ في هذا العطاء فِعْلَ أهلِ الصَّلاحِ، ووثَّقَ ذلك بأغلَظِ الأيمانِ، ثمَّ يكون مآلُهُ إلى نَقْضِ ذلك العَهْدِ، وخُلْفِ ذلكَ الوَعْدِ بخلًا بالمالِ وشُحًّا به،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553، والآلوسي، روح المعاني: 5/333.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/333.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/85.

فالمنافق لا يرتَبِطُ بوعْدٍ، ولا يلتَزِمُ بعَهْدٍ، بل نفسُهُ دائمَةُ الانفلات، عديمَةُ الاستقرار[1].

بَلاغَةُ أُسْلوبِ التَّرَقِّي:

جاءَ قولُ اللهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، بعد تقدُّمِ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، وذلك على سبيلِ التَّرقِّي؛ ووجهُ ذلك: أنَّ في الأولَى ذِكْرًا لكُفْرانِ نِعْمَةِ الغَنيِّ ﷻ، مِنْ غيرِ تقدُّمِ عهد منهم، وفي الثانية انتُقِلَ إِلَى الكلامِ عن كُفْرانِ نِعْمَةِ اللهِ سُبحانَهُ مع سبق عهد منهم على خلافِ ذلك؛ فكانَ هذا انتقالًا مِنَ الشَّديد والقبيحِ إِلَى الأَشَدِّ والأَقْبَحِ[2].

كُفْرانُ نِعْمَةِ اللهِ تَعالى مَعَ تَقَدُّمِ العَهْدِ بِحِفْظِها، أَشَدُّ منه مَعَ عَدَمِ ذلك

دِلالَةُ (الفاءِ) في: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾:

الفاءُ في قَوْلِ اللهِ سبحانَهُ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، حرفٌ دالٌّ على التَّرتيب والتَّعقيب على ما هو الأصلُ فيه، وأفادَ ذلك تعجيلَ اللهِ ﷻ لَهُم العُقوبَةَ؛ لأنَّهم لمّا سارعوا في نقض عهدِهم، وخُلْفِ وعْدِهم الَّذي دلَّ عليه قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾؛ عجَّل اللهُ تَعالى لهم العقوبةَ، إذِ الجزاءُ مِنْ جنسِ العمَلِ[3].

الجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وكَما يَدينُ الفتى يدان

بلاغةُ التَّضْمينِ في: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾:

الفعلُ (أَعْقَبَ) يتعدَّى لمفعولٍ واحدٍ، تقول: أعقبَ الشَّيءُ الشَّيءَ، ولكنَّه وردَ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، مُعَدًّى إلى مفعولين اثنين؛ إذ الأصلُ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أعقبَهُمْ بِنِفاقٍ)، فيتعدَّى للثَّاني بحرف الجرِّ لا بنفسِه، وإنَّما تعدَّى لمفعولَيْن؛ لأنَّه ضُمِّنَ مَعْنَى الفعل (آتَى) أو (أَعْطَى)[4]، فلمَّا آتاهُمُ اللهُ سبحانَهُ

مقابلةُ الإتيانِ بالكُفْرانِ، جزاؤهُ غرسُ النِّفاقِ في الوجدان

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3384.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3384.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/272.

مِنْ فضلِه، فَبَخِلوا بهِ؛ كان الأنسَبُ لحالِهِمْ أن يُؤتوا شيئًا آخرَ يصلُحُ لهم، وهوَ النِّفاقُ، فهو إيتاءٌ بدلَ إيتاءٍ.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾، ضميرٌ مستترٌ في محلِّ رفعٍ فاعلٌ، ومرجعُ الضَّميرِ هو: الاسمُ الأحْسَنُ (اللهِ)، أي: فأعقبَهُمُ اللهُ نفاقًا في قلوبهم، ويُؤيِّدُهُ قولُه سبحانه بعدُ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ فإنَّ الضَّميرَ هنا يَرْجِعُ إلى اللهِ تَعالى؛ إذِ اللِّقاءُ الأخْرَويُّ إذا أُطْلِقَ؛ انصرفَ الذِّهْنُ إلى لقاءِ اللهِ تعالى للحسابِ والجزاءِ، ويجوزُ أن يَعودَ الضَّميرُ على التَّمادي في البُخْلِ[1]، أي: إنَّ تماديَهُم على البُخْلِ؛ أورثَهُمْ نفاقًا مضافًا إلى نفاقِهِمْ، فيكون إسنادُ الإعقابِ إلَيْهِ مجازًا عقليًّا[2]، والأظهَرُ الأوَّلُ[3]؛ لأنَّ حملَ الكلامِ على الحقيقةِ مُمْكِنٌ، وفيه زيادَةُ ترهيبٍ وتخويفٍ وتعظيمٍ لهذا الإعقابِ؛ حيثُ صدرَ مِنَ الَّذي لا أعظمَ مِنْهُ، والَّذي يَصْدُرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ.

زيادَةُ التَّرْهيبِ مِنْ عَواقِبِ النِّفاقِ، والتَّخْويفِ مِنْ مغبَّاتِهِ ومفاسده

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظِ ﴿نِفَاقًا﴾:

نُكِّرَ لَفْظُ النِّفاقِ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، تعظيمًا لهُ، فالمعنى: أنَّ اللهَ ﷻ أورثَهُمْ نِفاقًا عَظيمًا، ويَجوزُ أَنْ يُرادَ بالتَّنكيرِ الدِّلالَةُ على أنَّه نفاقٌ جديدٌ[4]؛ لأنَّه قَدْ تقدَّم بيانُ أنَّ هؤلاءِ منافقونَ، فلم يحصُلْ لَهُم أصلُ النِّفاقِ عقبَ فعْلَتِهِم تلكَ، وإنَّما طرأَ عَليهم نفاقٌ آخرُ عَلى نفاقِهم الَّذي كان حاصِلًا وثابتًا، ولا تنافيَ بَيْنَ الدِّلالَتَيْنِ؛ لأنَّه يجوزُ أَنْ يكونَ المرادُ أنَّ اللهَ ﷻ أعقبَهُمْ نفاقًا آخرَ زائدًا عَلى النِّفاقِ الَّذي كانوا متلبِّسين به، وهذا النِّفاقِ الجديدُ نفاقٌ عظيمٌ.

المَعْصيَةُ تولِّدُ المَعْصيَةَ، والنِّفاقُ يورثُ النِّفاقَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/272.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/108.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/273.

دِلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿فِي﴾:

أثرُ استقرارِ النِّفاقِ في قُلوبِ المنافقين، وتَمَكُّنِه مِنْها بعمق

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قول الله ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، دالٌّ على الظَّرفيَّةِ، وفيه إشارَةٌ إلى أنَّ النِّفاقَ الذي أعقبهم اللهُ سبحانَهُ إيَّاهُ في قُلوبِهم نفاقٌ ساكِنٌ قلوبَهُمْ متمكِّنٌ مِنْها؛ بألَّا يزالوا يَقولونَ ما لا يَفْعَلونَ[1]، فيكون المعنى: "وأورثهم ذلك البخلُ والتَّولِّي والإعراضُ عن الحقِّ والخير، نفاقًا راسخًا في قلوبهم، وممتدًّا في نفوسهم، إلى اليوم الَّذي يلقون فيه ربَّهم، فيعاقبهم عقابًا أليمًا على سوء أعمالهم"[2].

بَلاغَةُ الكِنايَةِ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾:

التَّخويفُ مِنْ موافاةِ اللهِ تَعالى يَومَ القيامَةِ بِقَلْبٍ مُلِئَ نِفاقًا

المرادُ باليومِ الَّذي يَلْقَوْنَ فيه اللهَ سبحانه الوارِدِ في قوله ﷻ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾، هو يومُ الحَشْرِ؛ لأنَّه يومُ لقاءِ اللهِ تَعالى للحسابِ والجَزاء[3]، فَفي ﴿يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ كنايةٌ، ونُكْتَةُ العدولِ عنِ التَّصريح بأنَّه يومُ الحَشْرِ إلى التَّعبير بيَوْمِ لِقاءِ اللهِ تَعالى: ما في التَّعبيرِ الكِنائيِّ مِنَ الرَّهْبَةِ والجلالِ والتَّخويفِ؛ إذ هو اليومُ الَّذي يَلْقى العبدُ فيهِ مَنْ له جَميعُ صفاتِ الجلالِ والكَمال، فكَيْفَ يَكون حالُ العبد؛ إذا وافَى اللهَ تعالَى بِنِفاقٍ عظيمٍ متأصِّلٍ في قلبِهِ، متمكِّنٍ مِنْهُ؟

دِلالَةُ (الباءِ) في: ﴿بِمَآ﴾:

أثرُ حُروفِ المَعاني في بَيانِ الدَّلالاتِ القُرآنيَّةِ

الباءُ في قول الله ﷻ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ دالٌّ على السَّببيَّةِ أو التَّعليلِ، أي: إنَّ اللهَ سُبحانه أورثَهم نفاقًا في قُلوبِهم بسببِ إخلافِهم وَعْدَ ربِّهم تعالَى وبِسَبَبِ كذبِهِمْ[4]، وقوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: أخلفوا الوعدَ الَّذي وعدوه لله تعالى، وجعلَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 6/359.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/273.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/273.

الإخلافَ للّه ابتداءً لبيانِ جرمِهم فيما فعلوا؛ إذ إنَّهم أخلفوا اللّه تعالى خالقَهم وبارئهم ومالك أمرهم، وأيُّ نُكرٍ أشدُّ من ذلك؟

بَلاغَةُ الإظْهارِ في محلِّ الإضْمارِ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ﴾:

في قول اللّه ﷻ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾، إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضْمارِ؛ لأنَّ مقتضى الظَّاهِرِ أن يردَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (بما أَخْلَفوهُ ما وَعَدوهُ)؛ لأنَّه قَدْ تقدَّم ذِكْرُه صراحَةً في قوله: ﴿*وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، ثمَّ أُعيدَت عليه الضَّمائرُ بعدُ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾، فلمَّا جاءَ هذا الموضِعُ وهو قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ﴾ أوردَ اسمًا مُظْهَرًا؛ لأنَّ التَّصريحَ به يُدْخِلُ المهابَةَ على نفسِ السَّامِعِ، ولبيانِ عظيمِ جرمهم؛ لأنَّهُ إذا كان خُلْفُ وعد آحاد النَّاسِ قبيحًا، فكيف حالُ هؤلاءِ، وقدَ أخلفوا الملكَ الأَعْظَمَ الَّذي لا أعظمَ مِنْهُ، وهو الجامعُ لصِفاتِ الجَلال والكمالِ والجمالِ؟

أَقْبَحُ صُوَرِ إخْلافِ الوَعْدِ، هي إخْلافُ الوعد مَعَ اللهِ سُبْحانَهُ

نُكْتَةُ الجَمْعِ بَيْنَ إخْلافِ الوَعْدِ والكَذِبِ:

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾، ذَكَرَ اللّهُ سُبْحانَهُ سَبَبَيْنِ لإعْقابِهِمُ النِّفاق في قُلوبِهِم؛ أَحَدُهُما: إخْلافُهُمُ الوَعْدَ، والآخَرُ: الكَذِبُ، فقال ﷻ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾، وإنَّما نُصَّ على الكذبِ بَعْدَ إخلاف الوَعْدِ؛ لأنَّ إخلافَ الوَعْدِ لَمَّا كان شديدَ القُبْحِ، وكان مرتكبُه لا يتحاشَى عادةً مِن مُطْلَقِ الكذب؛ قُرِنَ به[1].

مُخْلِفُ الوَعْدِ لا يَتَحاشى الكَذِبَ عادَةً

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَكْذِبُونَ﴾:

في التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَكْذِبُونَ﴾ دونَ الماضي: (كَذَبوا) مِنْ قول اللّه ﷻ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾

تَجَدُّدُ الكَذِبِ مِنَ المُنافِقينَ، يكون مَقْرونًا بالوَعْدِ أَوْ مُنْفَكًّا عَنْهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.

إشعارٌ بأنَّ الكذبَ مِنْهُم يتجدَّدُ دائمًا، سواءٌ أكان مقرونًا مَعَ الوَعْدِ أَمْ مُنْفكًّا عَنْهُ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾:

تَمَكُّنُ الكَذِبِ في المُنافِقينَ غايَةَ التَّمَكُّنِ، شقاوةٌ ونكبة

في التَّعبير بفِعْلِ الكَوْنِ ماضيًا في قول الله ﷻ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ إيماءٌ إلى كونِهم مُسْتَمِرّين عَلى الكذبِ في جميعِ المقالاتِ، ومِنْ جملتِها: وعدُهُم المذكورُ[2]. وفي قولِهِ: ﴿كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ جمعٌ بَيْنَ صيغَتَي الماضي - ﴿كَانُواْ﴾ - والمُضارِعِ - ﴿يَكْذِبُونَ﴾ - فالماضي دالٌّ على أنَّ الكَذِبَ كائِنٌ فيهِم ومُتَمكِّنٌ مِنْهُم غايَةَ التَّمكُّنِ، والمضارع مفيدٌ تكرُّرَهُ وتجدُّدَهُ فيهم؛ فَبَلَغوا بذلكَ أسوأَ مراتبِ الكذبِ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاءُ والإعْطاءُ:

الإيتاءُ لا مُطاوِعَ لفعله، ويرتبط بالثَّبات والتَّملُّك بخلاف الإعطاءِ

الإيتاءُ والإعْطاءُ مَعْناهُما واحدٌ عندَ كَثيرٍ مِن أَصْحابِ المعجمات[4]، وفرَّق آخرونَ بينَهُما، وحاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[5]: أَحَدُها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لفعله، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مطاوعًا، فتقول: أعطاني شيئًا فَعَطَوْتُهُ، ويترتَّب على هذا أَنَّ الإيتاءَ أقوَى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعال أَضْعفُ في إثْباتِ مَفْعولِهِ مِمَّا لا مطاوِعَ له. ثانيها: أنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقلُ مِنْهُ بعد قضاء الأَرَبِ منهُ. ثالثُها: أنَّ في الإعْطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاءِ. وأمَّا في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/86، والآلوسي، روح المعاني: 5/334.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/273، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3386.
(4) الخليل بن أحمد، العين: (أتى)، والجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أتى).
(5) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

خصوص الاستعمال القرآنيِّ للفظتَي (الإيتاء) و(الإعطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا من جهَتَيْن[1]: إحداهُما: أنَّ الإيتاءَ لَم يُستعملْ إلَّا للشَّيء الكَثير والعظيم الشَّأن، كالقرآن الكريم، والتَّوراة، والمُلْك، والرَّحمة، بخلاف الإعطاء؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ للشَّيْءِ القليل، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلَّا بقيدٍ ما يدلُّ على الكثرَة. والأخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعْطاء؛ فَهوَ مُطْلَقٌ.

البُخْلُ والشُّحُّ والضِّنُّ:

البخلُ متعلِّقٌ بالمادِّيَّات، والضِّنُّ بالمعنويَّاتِ، والشُّحُّ حِرْصٌ في النَّفس على النَّفيس

هذه الألفاظُ الثَّلاثة تَرِدُ في الاستعمالِ القرآنيِّ مرادًا بها معانٍ مختلفةٌ، فالبخلُ يَرِدُ في الجانب المادّيِّ، وهوَ العرَضُ مِنْ أعراضِ الدُّنيا، بخلاف الشُّحِّ فإنه يُستعمَلُ لما يَنْبَعِثُ عن النَّفس مِنَ الحِرْصِ عَلى مَنْعِ الخير، وأمَّا الضِّنُّ؛ فهوَ بُخْلٌ معنويٌّ ناشِئٌ عَن نفاسة الشَّيْءِ المبخول به، فالبُخْلُ في اللُّغَة: منعُ الرَّجلِ سائلَهُ ما لديهِ من فضلٍ، وأمَّا في العُرْفِ الشَّرعيِّ؛ فهو منعُ الواجب، ومنهُ: منعُ الزَّكاةِ، ويُؤيِّدُ كونَ البُخْلِ شرعًا مَنْعَ الواجبِ، ترتيبُ العقابِ الأخرويِّ عليه، ويدلُّ على أنَّ البخلَ يُستعمَلُ في المادِّيَّاتِ قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨﴾ [اللّيل: 8]، فإنَّ المرادَ بهِ البخلُ بالمالِ؛ لأنَّه وردَ مقابِلًا للعطاءِ في قوله قبلُ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ [اللّيل: 5]، ثُمَّ جاءَ التَّصريحُ في القرآنِ الكريم بأنَّ البخيلَ لا يُغْني عنه مالُهُ إذا دخل النَّار، فقال ﷻ: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [اللّيل: 11]، أمَّا الشُّحُّ؛ فهو أعمُّ من أن يُبْخَلَ بالمالِ؛ إذْ هو أمرٌ يتعلَّق بالنَّفس الَّتي تَكونُ مطبوعَةً عليهِ في مَنْعِ الخير، سواءٌ أكان ذلكَ من مالِ العَبْدِ نفسهِ أَمْ مِنْ مالِ غيرِهِ، ويدلُّ لذلك اقترانُ الشُّحِّ بالنَّفسِ في مواضعَ من القرآنِ الكَريم، منها قولُ

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النّساء: 128]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: 9].وأمَّا الضِّنُّ؛ فهو مختصٌّ بالجانب المعنويِّ دون المادِّيِّ، واختصَّ بالمعنويِّ، ليكونَ دالًّا علَى نفاسة الشَّيءِ المبخول به، وقد وردَ لفظُ الضِّنِّ في القرآنِ الكَريمِ، في مَوْضِعٍ واحدٍ للدِّلالةِ على البُخْلِ بالعِلْمِ، وهو قولُ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾[1] [التّكوير: 24].

(1) محمَّد ياس خضر الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 198 - 200.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»